ثقافة وفنون

الفكر الفلسفي المسيحي في متناول القارئ العربي
يُعَد من أهم المسارات الفلسفيّة في الغرب المعاصر



مالك القعقور

آخر تحديث: 00:46-2 ديسمبر 2025 م ـ 11 جمادى الآخرة 1447 هـ
نُشر: 18:08-1 ديسمبر 2025 م ـ 10 جمادى الآخرة 1447 هـ

في سياق الاهتمام المتنامي في العالم العربي عموماً، وفي البلدان الخليجيّة خصوصاً، بتوسيع آفاق المعرفة الفلسفيّة واستكشاف التراث الفكري العالمي، تبرز «موسوعة الفلسفة الفرنسيّة المعاصرة»، التي تصدر مجلداتها العشرة تباعاً عن «دار صوفيا - الكويت»، لتشكل جسراً معرفيّاً ينير طريق القارئ العربي في واحد من أهم المسارات الفلسفيّة في الغرب المعاصر: الفلسفة المسيحيّة الحديثة. وهذا المسار يشكل محور المجلّد السابع من العشريّة، التي يشارك فيها باحثون متخصصون ويشرف عليها

الباحث اللبناني مشير باسيل عون، إذ يقدّم المجلد للقراء، في سائر البلاد العربيّة، مدخلاً رصيناً إلى الفكر المسيحيّ الفلسفي، بعيداً عن الصور النمطيّة والقراءات السجاليّة، وبما ينسجم مع تطلّع القارئ العربي اليوم إلى فهم أعمق للآخر الدينيّ والثقافيّ.

يكتسب المجلّد السابع، الذي عرض للمرّة الأولى في معرض القاهرة الدولي للكتاب فبراير (شباط) الماضي، أهميّته من كونه يفتح نافذة على تيّار فكري ظلّ، رغم تأثيره الواسع في الفلسفة الأوروبيّة، مجهولاً أو ملتبساً لدى القارئ العربي. فالفلسفة المسيحيّة، كما تكشفها دراسات هذا الإصدار، ليست خطاباً وعظيّاً ولا دفاعاً مذهبيّاً، بل مشروع تفكير نقديّ يتداخل فيه العقل مع التجربة الروحيّة، ويتفاعل مع تحوّلات الفكر الغربي الكبرى في القرن العشرين: من الفينومينولوجيا إلى التفكيك، ومن الفلسفات الأنطولوجيّة إلى التأويلية.

وبذلك، يقدّم هذا العمل للقارئ العربي فرصة نادرة للتعرّف على كيفية إخضاع الإيمان المسيحيّ لمنهجية نقديّة فلسفيّة، وعلى تجربة فلاسفة سعوا إلى التوفيق بين العقل الحرّ والإيمان الروحيّ، وتقاليد المسيحيّة ومتطلبات الحداثة. وهذا الانفتاح المعرفي ليس مجرّد استعراض ثقافي، بل خطوة ضروريّة في بناء وعي فلسفيّ عربيّ قادر على الحوار مع الفكر العالمي، ومتحرّر من الانغلاقات العقائديّة التي تكبّل مسار النهضة الفكريّة.

وبفضل المجلّد السابع من العشريّة، يستطيع القارئ العربيّ أن يطّلع على الاجتهادات الفذّة التي أتى بها الفلاسفة الفرنسيّون المعاصرون في القرن العشرين، وقد انعقدت على التأمّل في مصائر المعنى المسيحيّ وشهادة الإيمان وحقائق العقيدة في قرائن التحوّلات الفكريّة الجسام التي اختبرها الفكر الفلسفيّ الغربيّ المعاصر. تجدر الإشارة، في البداية، إلى أنّ العشريّة الفلسفيّة الفريدة هذه تتناول حصيلة الإنتاج الفلسفيّ الفرنسيّ المعاصر في القرن العشرين حصراً، وتوزّعه على محاور جامعة أساسيّة: فلسفات البنيويّة والتفكيك والاختلاف (2021)، والفِنومِنولوجيا وتفرّعاتها والفِسارة الفلسفيّة (2022)، والفلسفات التفكّريّة والشخصانيّة والوجوديّة (2023)، وفلسفة تأريخ الفلسفة (2023)، والفلسفات الجماليّة (2025)، والفلسفات الهيغليّة والماركسيّة والفلسفات التاريخيّة التفكيكيّة (2026)، والفلسفات المسيحيّة (2025)، والفلسفات الاجتماعيّة والنفسيّة والتربويّة والأخلاقيّة (المجلّد الثامن)، والفلسفات السياسيّة والاقتصاديّة والقانونيّة والبيئيّة والإعلاميّة (المجلّد التاسع)، وفلسفات الطبيعة والعلوم والإبّيستِمولوجيا (المجلّد العاشر).

ينطوي مجلّد الفلسفات المسيحيّة الفرنسيّة هذا على الدراسات المونوغرافيّة التي تناولت أبرز الفلاسفة الفرنسيّين الذين أعلنوا جهاراً انتماءهم الفكريّ إلى الخلفيّة الإيمانيّة المسيحيّة واستلهموا مبادئها وأصولها وقيَمها في بناء أنظومتهم الفلسفيّة المؤمنة. لذلك كان لا بدّ من الوقوف على طبيعة

هذه الخلفيّة، والنظر في عناصر الخصوصيّة الفكريّة المسيحيّة التي وسمت أعمالهم. ذلك بأنّ بعضاً منهم انبرى يعلن إعلاناً صريحاً عن انتمائه المسيحيّ، وآثر بعضُهم الآخر الاكتفاء بالاختبار الإيمانيّ الشخصيّ الذاتيّ من غير الإفصاح عنه وربطه بمسار بناء الأنظومة الفلسفيّة الداخليّ الخاصّ.

من الموضوعات التي يعالجها المجلّد السابع هذا مسألةُ البُعد المسيحيّ الفكريّ الإيماني في أعمال الفلاسفة الفرنسيّين المسيحيّين المعاصرين، وقضيّةُ هويّة الفلسفة المسيحيّة. ذلك بأنّ السؤال الذي ما برح يقضّ مضاجع أهل الفكر إنّما يتحرّى إمكان الجمع بين الإيمان والعقل: هل يجوز أن نصف الفلسفة بالانتماء الدِّينيّ المسيحيّ؟ ما معنى أن تكون الفلسفة مسيحيّةً؟ وهل تُطيق الفلسفة أن تخضع للانتماء المسيحيّ؟ هل يصحّ الكلام على فلسفة مسيحيّة أو حتّى دينيّة على الإطلاق؟ هل نشأت حقّاً فلسفةٌ فرنسيّةٌ مسيحيّةٌ محض؟

وعليه، يمكن القول إنّ وظيفة هذا المجلّد أن يُعرّف الفلسفات الفرنسيّة المسيحيّة المعاصرة تعريفاً جامعاً شاملاً، بحيث يتّضح تنوّعُ مسالكها بتنوّع أصحاب النظريّات الفلسفيّة، وقد اجتهد المؤلِّفون المشاركون في تعيين مقام الإيمان المسيحيّ، سواءٌ في الوعي الفرديّ والجماعيّ أو في الأنظومة الثقافيّة السائدة. من أبرز الإشكاليّات التي تصدّت لها فصولُ هذا المجلّد تسويغُ قضايا المِتافيزياء الدِّينيّة في سياق الحدود التي ترسمها العقلانيّة النقديّة المعاصرة، لا سيّما في سياق ضوابط فلسفات اللغة والفلسفات التحليليّة وأيضاً الفِنومِنولوجيّة. وعلاوةً على ذلك، يجدر الالتفات إلى التفاعل الجدليّ بين الاتّجاهات الفلسفيّة الفرنسيّة المعاصرة التي يتنازعها حدّان: إمّا رفض إقحام الإيمان المسيحيّ في دائرة التفكّر الفلسفيّ، وإمّا تسويغ التفكّر النقديّ في قضايا المِتافيزياء الدِّينيّة بالاستناد إلى فرضيّة الرحابة الاختباريّة التي يتّصف بها الوعيُ الإنسانيُّ.

«الفلسفة المسيحيّة ليست خطاباً وعظيّاً ولا دفاعاً مذهبيّاً، بل مشروع تفكير نقديّ يتداخل فيه العقل مع التجربة الروحيّة»

من الخلاصات الخطيرة التي تُفضي إليها المقدّمة المسهبة التي وضعها مشير باسيل عون إعادةُ النظر في مفهوم الفلسفة المسيحيّة. ويقول عون: إذا قبلت المسيحيّة أن تحقّق دعوة المسيح الإخلائيّة على الصليب، فأخلت ذاتَها من قوامها التاريخيّ ومنظوريّتها المؤسّساتيّة وكثافتها العقائديّة،

استطاعت أن تمنح العقلَ الفلسفيَّ الحرّيّةَ الضروريّةَ التي تتيح له أن يَنظر نظراً موضوعيّاً في الاختبار الجوّانيّ الروحيّ الإيمانيّ. حين تتحوّل المسيحيّةُ إلى خميرة الروح المنغلّة في تضاعيف الوعي الإنسانيّ، تستطيع الفلسفة أن تستلهم روحانيّة التضحية الذاتيّة والإخلاء الكيانيّ، فتتناول حقيقة المسيح في صميم جوهرها البذْليّ الأقصى. ومن ثمّ، لا قيام لفلسفةٍ مسيحيّةٍ معاصرةٍ ترفض التضحية بالذات من أجل نصرة العقل الحرّ الذي يتوق إلى الانعتاق من كلّ أصناف المنظوريّة التاريخيّة القاهرة. على قدر ما تتذكّر المسيحيّةُ أنّ المسيح أراد تحريرَ الناس من الدِّين - المؤسّسة والدِّين - العقيدة والدِّين - السلطان والدِّين - النظام، تتيح للعقل الفلسفيّ أن ينبسط في حقل الإيمان المسيحيّ يستصفي منه أبهى الفتوحات الروحيّة الراقية. ذلك بأنّ الفلسفة ترتاح إلى تدبّر حياة الخميرة الخفِرة المنحجبة المتواضعة، وتُنفِّرها الأجسامُ الصلبة، والعماراتُ الثقيلة، والبناءاتُ المرصوصة، والعقائديّاتُ المتطرّفةُ المتحجّرة، والتشريعاتُ القاهرة الخانقة. ما دامت الروح حقلَ الفلسفة المفضَّل، فإنّ مسيحيّة الروح أعذبُ على العقل الفلسفيّ من جميع أصناف المسيحيّة المتجبّرة التي اختبرها التاريخ، بحسب تعبير عون.

ومن ثمّ، تحتاج مجتمعات العالم العربيّ المعاصر إلى التفكّر الفلسفيّ الحرّ هذا لكي تتحرّر من عقائديّتها المتصلّبة وتزمّتها الآيديولوجي المسرف. فالإيمان ينبغي أن يتحوّل في وعي الإنسان العربيّ المعاصر إلى اختبار جوّانيّ حرّ يحرّر الذات من أنانيّاتها الضيّقة وأحكامها الإقصائيّة، ويربطها بأفق روحيّ جليل يقوّم انحرافات الضمير ويهذّب الأخلاق رافعاً إيّاها إلى مصافّ القيَم الإنسانيّة السامية. ويقول عون: كلّما أعمل الإنسانُ عقلَه المستنير في أنظومته الدِّينيّة، اتّضح له أنّ التديّن الذي يسوّغ العنف والرياء والفساد إنّما ينتسب إلى ضروب العمى الآيديولوجي الذي يجب الانعتاق منه حتّى تستقيم الحياة الإنسانيّة في المجتمعات العربيّة المعاصرة.

إنّ المجلّد السابع من عشريّة الفلسفة الفرنسيّة المعاصرة لا يقدّم للقارئ العربي مادّة معرفيّة وحسب، بل يفتح أمامه فضاءً رحباً للتأمّل في إمكان قيام حوار جديد بين الإيمان والعقل، والتجربة الروحيّة والبحث الفلسفيّ. فالاطلاع على مسارات الفلسفة المسيحيّة المعاصرة يتيح للقارئ في العالم العربي، ولا سيّما في البلدان الخليجيّة التي تشهد نهضة علميّة وثقافيّة متسارعة، أن يكتشف كيف استطاع الفكر الغربيّ أن يعالج أسئلته الوجوديّة والدينيّة بجرأة نقديّة ومسؤوليّة روحيّة في آن واحد.

ولعلّ القيمة الأبرز لهذا العمل تكمن في قدرته على زحزحة التصوّرات الجامدة التي تربط بين الدين والانغلاق، إذ يكشف أن الإيمان، حين يتحرّر من ثقل المؤسّسة ومنطق السلطة، يصبح اختباراً حيّاً قادراً على إغناء البحث الفلسفيّ وتوسيع أفق الإنسان الأخلاقيّ والروحيّ. ومن هنا، يوفّر هذا المجلّد فرصة ثمينة للقارئ العربي كي يعيد التفكير في علاقته بنصوصه الدينيّة وبتراثه الفكريّ، بعيداً عن التشدّد الآيديولوجي والتفسيرات الموروثة التي تعيق نموّ العقل الحرّ.

إنّ الانخراط في هذا النوع من القراءات ليس رفاهاً ثقافيّاً، بل ضرورة معرفيّة للعبور نحو وعي فلسفيّ عربيّ أكثر نضجاً وانفتاحاً.

مواضيع

أدب | ديانات | فلسفة | بريطانيا | الكويت | العالم العربي